المنهج القرآني في التعامل مع الابتلاء

- أ.د.المبروك المنصوري- -أ.د.داود بن عيسى بورقيبة
جامعة السلطان قابوس- عُمان /جامعة الأغواط- الجزائر

الملخّص:

إنّ حياة الإنسان المسلم في هذه الدنيا تقوم على العقيدة، هذه العقيدة التي تنطلق من حقيقة توحيد الله عزّ وجلّ، وعدم الشرك به، هذه العقيدة التي جاء بها الرسل ليوجّهوا هذا الإنسان نحو خالقه، لينسجم مع حركة الكون، ويدرك حقيقة خلقه وسرّ وجوده في هذه الدنيا، فبدون هذه العقيدة و هذا التوحيد سيفقد الإنسان قدرته على الانطلاق والانسجام مع حركة هذا الكون، وإدراك غاية خلقه ووجوده.

إنّ توحيد الله هو الصراط المستقيم وهو القاعدة التي ينطلق من خلالها المسلم في تصوّراته وفهمه وإدراكه لكل الأمور المتنوعة والمختلفة، فتوحيد الله يقتضي توحيده في الخلق والأمر، أمر الله النافذ على جميع مخلوقاته، الذي ينسجم مع ما خلق وما يحقّق المصلحة لهم.

وكلّ شيء في هذا الكون - الذي هو من صنع الله وخلقه- يسير وفق سنن محدّدة ومقدّرة بأمر الله سبحانه وتعالى، ومن أمثلة هذه السنن، سنّة الابتلاء، التي هي من السنن المهمّة والخطيرة، التي يقوم عليها خلق الإنسان، إذ يقول عزّ وجلّ: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴾[الملك: 1-2]. فحقيقة هذه الحياة هي ابتلاء من الله عزّ وجلّ وامتحان واختبار للإنسان.

ونحاول في هذه الورقة البحثية بيان بعض ما جاء في القرآن الكريم في التعامل مع البلاء.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم- الابتلاء- المنهج

Abstract :

The life of the Muslim man in this world is based on faith. This faith stems from the belief in the unity of God Almighty and the message of His Apostles to guide Man towards his Creator, to fit with the movement of the universe, and to be aware of the truth of his creation and the mystery of his existence in this world. Without this precept and this unification, Man will lose his capacity to proceed onward and fit with the development of this universe and understand the reason for his creation and existence.

The unification of God is the straight path; it is the basis through which the Muslim understands and sees all things. The unification of God requires unification of creation and Holy commands. God commands to His creatures are consistent with humans and heir interest.

Everything in this universe - which is a God's creation - goes according to a specific target stems from God's command. Among these codes is the code of the Holy test (ibtilaa); it is one of the important and interesting codes on which human creation is based. The truth of this life is a heavenly trial of the God Omnipotent and an exam of Man.

In this paper, we try to explain some of the Quranic verses in dealing with the holy exam in the Quran.

إنّ سنّة الابتلاء في واقع المؤمن والجماعة المؤمنة لها خصوصية كبيرة، وأهمّية عظيمة فقد جاءت الآيات القرآنية تتحدّث عن الابتلاءات والمحن التي سيتعرّض لها المؤمنون، موجّهة ومربّية لهم، وهي تخاطب الأفئدة والعقول؛ لتبعث في نفوسهم القوّة والأمل للاستمرار والتواصل، وليميز الخبيث من الطيّب، بحيث يتأهّل الصفوة البررة ؛ لتحمّل المسؤولية والأمانة؛ فيأتي النداء الربّاني للمؤمنين، وهو يضع بين أيديهم حقيقة الابتلاء الذي سيتعرّضون له، ويشحن هممهم، ويستنهض قواهم وطاقاتهم للاستعداد للمواجهة فيقول عزّ من قائل: ﴿ الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ② وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : 1-3] .

ولقد أشار الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى سنّة الابتلاء في العديد من المواقف المهمّة في تاريخ الدعوة، ولا سيّما في مرحلة البناء حينما جاءه بعض الصحابة يطلبون النصر ويشكون إليه، ففي الحديث الشريف: "شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا قَالَ كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"[1].

- تعريف الابتلاء:

قال ابن منظور: بلوت الرجل بلواً وبلاءً وابتليته: أي اختبرته، وبلاه يبلوه بلواً، إذا جرّبه واختبره[2]. وابتلاه الله: امتحنه.

والبلاء يكون في الخير والشرّ؛ يقول الله تعالى: ﴿ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةً ﴾ [الأنبياء:35] .

يقول ابن حجر[3]: الابتلاء والتمحيص، من بلوته ومحّصته، أي استخرجت ما عنده، والابتلاء المراد به الاختبار، ولهذا قال: "هو من بلوته إذا استخرجت ما عنده"، واستشهد بقوله تعالى: ﴿ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴾ [محمد:31]، أي نختبر، و: ﴿ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾ [البقرة: 249] أي مختبركم.

ولفظ البلاء من الأضداد، يطلق ويراد به النعمة، ويطلق ويراد به النقمة، ويطلق أيضًا على الاختبار، ووقع ذلك كلّه في القرآن، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ [الأنبياء:35]. ويقول سبحانه: ﴿ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [الأعراف:168]

---

[1] - رواه الإمام البخاري في **صحيحه** برقم: 3343

[2] - محمد بن مكرم،ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط:3، 1414هـ، ج:14، ص: 84

[3] - العسقلاني، ابن حجر، **فتح الباري**، دار المعرفة، بيروت، 1379، ج:11، ص: 196

من خلال كلّ ما سبق نصل إلى بيان تعريف الابتلاء، فنقول: "الابتلاء هو امتحان من الله لعباده، يختبر طاعتهم له، وامتثالهم لأمره، ليجزيهم يوم القيامة على ما تقدّم منهم في الحياة الدنيا".[1]

- قدر الابتلاء:

إنّ الابتلاء أمر حتمي، لا خلاص ولا فكاك منه، والله عزّوجلّ جعل علّة خلق الحياة اختبار عباده وابتلاءهم لتبيين محسنهم ومسيئهم، فقال: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴾[الملك: 1-2]

وقال الله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾[العنكبوت : 1-3]

وإنّ من رحمة الله تبارك وتعالى أن نوّع من قدر البلاء، بحسب طاقة كلّ إنسان، فالناس متفاوتون فيما بينهم، فمنهم من يتحمّل الفقر، ولا يقف أمام الغنى، ومنهم من يتحمّل موت الأقارب ولا يتحمّل الفقر، ومنهم من يتحمّل نقص الأولاد، ولا يتحمّل نقص الأموال وهكذا، فالله تبارك وتعالى ساوى بين الناس جميعاً في السرّاء والضرّاء، ولكن اختلفت الأنواع والمقادير من إنسان لآخر، قال الله تعالى: ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[آل عمران : 108].

وممّا يمتحن الله به عباده، تفاوتهم واختلافهم في المواهب والأرزاق، ليظهر مدى قيامهم بما يلزمهم شرعًا من فعل أو ترك نحو أنفسهم وغيرهم، بناءً على الحالة التي هم عليها، وامتازوا بها عن غيرهم، واختصّوا بها مِن دونهم، كالعلم، والجاه، والمال، والمكانة الاجتماعية[2]...، وكذلك بناءً على فقرهم وضعفهم، قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴾[الأنعام: 165].

وعلى ذلك فالله تعالى نوّع في مقادير الابتلاءات أيضًا، كلاًّ حسب طاقته، قال الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : 286]

وقيل: على قدر العزائم يبتلى الناس بالمصائب.

---

[1] - نصار أسعد نصار، **مفهوم الابتلاء في القرآن الكريم**، مجلة جامعة دمشق، المجلد:20، العدد الأوّل 2004، ص:13

[2] - رجب نصر موسى الأنس، **سنّة الابتلاء في القرآن الكريم**، مذكّرة ماجستير في أصول الدين، غير منشورة، قدّمت بكلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2007م، ص: 45

وأقسم الله سبحانه أنّه سيبلو عباده بالمكاره والمصائب، ليظهر صبرهم، واحتسابهم ورضاهم بما قدَّره عليهم فقال: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾[البقرة: 155-157]

والابتلاء في القرآن أنواع، وهو ما سنبيّنه فيما يأتي:

- أنواع الابتلاء في القرآن الكريم:

1- الابتلاء بالتكليف:

والتكليف لغة : إلزام ما فيه كلفة، أي مشقّة.

وشرعا، قيل: الخطاب بأمر أو نهي، وهو إلزام مقتضى خطاب الشرع.

والتكليف مأخوذ من تكلّف الأمر، تجشّمه، وتكلّف الشيء فعله بجهد، تصله منه مشقّة معتادة، قال الله تعالى:﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة: 286]

إنّ التكاليف العبادية، والأوامر والنواهي الإلهية، هي نوع من أنواع الابتلاء الإلهي لهذا الإنسان، تكشف مدى إيمانه بالله واستجابته لندائه، وامتثاله لأوامره، واجتناب نواهيه سبحانه وتعالى.

فحينما يأمرنا الله تعالى بالصلاة، والصوم، الحجّ، والزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبرّ الوالدين، وصلة الرحم، وغيرها من تكاليف عبادية، وأوامر ونواهي إلهية، وينهانا جلّ وعلا عن الغيبة، والنميمة، والكذب، والزنا، وشرب الخمر، والسرقة، وقتل النفس، وغيرها من المحرمات، أو حتّى المكروهات. فهو بذلك يبتلينا ويمتحننا ويختبرنا ليكشف مدى صدقنا من كذبنا في ادّعاء الإيمان به والاستجابة له سبحانه وتعالى.

إنّ التكاليف العبادية نوع من أنواع الابتلاء، تكشف معدن الإنسان، وتبيّن مدى صدقه من كذبه فيما يدّعيه من الإيمان، كما أنّها تحدّد مصير الإنسان ومكانه يوم القيامة.

ومن الابتلاء بالتكليف ما جاء في قوله تعالى:﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾[البقرة: 124] ومنها أمره بذبح ابنه، ولمّا استجاب لأمر ربّه، وتهيّأ لتنفيذ الذبح، سمّى الله ذلك التكليف البلاء المبين، أي الواضح، وافتدى الله الابن العزيز الصابر الراضي بقضاء ربّه بكبش عظيم.

قال الله تعالى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[الصافات: 100 - 107] .

2- الابتلاء بالمصائب:

المصائب جمع مصيبة، والمصيبة: هي الأمر المكروه ينزل بالإنسان.

ويرادف لفظ المصيبة في المعنى: السيّئة، قال الله تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: 79]، يقول ابن تيمية في بيان هذا الترادف: "إنّ المراد هنا بالحسنات والسيّئات النعمَ والمصائب، كما في قوله تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الأعراف: 168]، أي امتحنّاهم واختبرناهم بالسرّاء والضرّاء "[1].

فمعنى المصيبة والسيّئة إذن- في هذا المجال- هو ما يصيب الإنسان من مكروهات، وهي لا تخرج عن الإصابة إمّا: في النفس، أو المال، أو الأهل.

ومن الابتلاء بالمصائب، ما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[العنكبوت: 2-3]؛ فمن الخطأ ادّعاء الإيمان من غير الثبات في الشدائد، والرضا بقضاء الله.

إنّ سنّة الله في خلقه أن يختبر إيمان المؤمنين بأن يصيبهم بما يكرهون، فإن صبروا ورضوا بما قدَّر ربّهم، فقد صدقوا في قولهم: "آمنّا"، وإن لم يصبروا ويرضوا فهم كاذبون في دعوى الإيمان.

ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[البقرة:155].

ومن الابتلاء بالمحن والشدائد ما تحفل به حياة الأنبياء والمرسلين، من ذلك قوله تعالى عن أيّوب عليه السلام: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾[الأنبياء : 83-84]، فقد كابد نبيّ الله أيّوب وتحمّل الآلام إلى درجة جعلته يجأر إلى الله بالنداء مصرّحًا بمساس الضرّ.

3- الابتلاء بالنعم والخيرات:

فكلّ خير يتفضّل الله به على عبد من عباده هو اختبار له ليظهر شكره، وحسن استخدام النعم فيما يرضي المنعم سبحانه وتعالى، فإن شكر فقد نجح في امتحان الخير، وأرضى ربّه، واستحقّ المزيد من الخير تحقيقاً لوعد الله، عزّ وجلّ: ﴿ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[إبراهيم:7]

---

[1] - ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، تح: عبدالرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1416هـ، ج:4، ص: 278 بتصرف بسيط.

كثيراً ما يخفى على الناس أنّ النعم ابتلاء، فيظنّونها تكريماً من الله لهم، لا اختباراً لشكرهم فيسيئون استخدامها، ويفترون بها، فيفسدون ولا يصلحون، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾[الفجر: 15-17]

ومن ذلك ما قصّه القرآن الكريم عن قارون: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾[القصص: 76-78] .

إنّ الابتلاء بالخير أشدّ وأثقل من الابتلاء بالشرّ، فقد زيّن الله سبحانه وتعالى الخير للإنسان وجبله عليه، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:8]

فالنفوس تهوى الخير وتتطلّع إليه، وتكدّ الأبدان وترهق العقول، وتزهق الأرواح من أجل تحصيل المنافع ودفع المضارّ، قال الله تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾[آل عمران : 14] .

وقال الله تعالى :﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾[الكهف : 46].

فالخير دائماً مزيّن محفوف بالشهوات، تتطلّبه النفس الأمّارة وتحثّ صاحبها على اكتسابه، والحصول عليه بشتّى الطرق والوسائل، سواء أكان حلالاً أم حراماً، فهو من أهمّ حبائل الشيطان ومكايده التي يوقع بها الإنسان في المعصية، فهو من الأمور التي يشارك الشيطان فيها الإنسان، بحضّهم على جمعها واكتسابها من طرق الحرام، قال الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾[الاسراء : 64- 65] ، ولا يخفى على أحد مدى قوة إبليس في الإغواء والتزيين .

وقد حذّر الله تبارك وتعالى من هذا النوع من الابتلاء، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿14﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[التغابن : 14- 15]، وممّا لاشكّ فيه أنّ الله لا يستخدم أسلوب النداء إلاّ ليسترعي الآذان، ويجذب العقول لأهمّية ما سيلقى عليهم من توجيهات، وكان ما ألقاه الله هو التحذير من أحبّ النعم إلى الإنسان.

والابتلاء بالشرّ أهون من الابتلاء بالخير، لأنّ الامتحان بالشرّ، امتحان مباشر يدركه عامّة الناس، فكلّ من وقع به ما لا يحبّ من مصيبة أو فقد عزيز، أو نقص في مال، أو نفس يدرك –غالباً- أنّه مُبتلى ومُختبر، فيلجأ إلى ربّه يسأل اللطف والتخفيف، والتعويض قائلاً ما علّمه ربّه: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: 156].

فضلاً عن أنّ المبتلى بالضرّاء، يسهل عليه الصبر والاحتمال، فليس أمامه سوى الصبر، ولا يوسعه إلاّ الرضا، ولا تتحقّق له الراحة إلاّ بالقناعة، فالمبتلى بالفقر- عادة- لا يستطيع شرب الخمر لأنّه لا يملك ثمنها، وليس بإمكانه منع زكاة لأنّها لم تجب عليه، ولا يستطيع التكبّر، لأنّه لا يملك مقوّماته، هذا بخلاف من يستطيع أن يرتكب مثل هذه المعاصي، لأنّها في إمكانه وتحت طائلته وفي مقدرته.

إنّ الامتحان بالخير، هو امتحان غير مباشر، لا يدرك حقيقته إلاّ من صدق إيمانه، وصَفَت بصيرته، فأدرك أنّه مسؤول عن كلّ ما يتفضّل الله به عليه من الصحّة، أو التمكين في الأرض، أو زيادة في الخير على نحو ما قصّه القرآن الكريم عن نبيّ الله سليمان عليه السلام، إذ قال حينما سمع صوت النملة تحذّر قومها من الهلاك إن لم يدخلوا مساكنهم خشية أن يحطمهم جيشه المتعدّد الجنسيات من الإنس والجنّ والطير ، قال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿18﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾[النمل:17-19]

وموقفه عليه السلام عندما جاءه عرش ملكة سبأ من اليمن إلى الشام في أقلّ من غمضة العين، قال الله تعالى: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿37﴾ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿38﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿39﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾[النمل: 38-40]

ولأنّ الامتحان بالخير أصعب من الامتحان بالشرّ، كان القليل من ينجح فيه، قال الله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ :13].

4- الابتلاء عقابًا على ارتكاب المعاصي:

يبيّن لنا الله تعالى في القرآن الكريم أنّ الإخلال بالواجب الإيماني يؤدّي إلى العقوبة سواء الخاصّة منها أو العامّة[1]، كما وقع لكثير من القرى الظالمة، قال تعالى:﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا (16) وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾ [الإسراء: 16-17]

وقال الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾[الروم: 41] وقال: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[الأعراف:96]، وقال أيضًا: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾[الشورى: 30].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[الأنعام: 42-43] فبيّن الله تعالى أنّ أولئك بدل أن يرجعوا إلى الله، قست قلوبهم، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فأخفقوا في الامتحان مرّة ثانية.

ومن ذلك ابتلاء أصحاب الجنّة الذين ورد ذكرهم في سورة القلم.

فما أصاب أصحاب تلك الحديقة، المانعين حقّ الله هو ابتلاء انتقام وعقاب، فيبيّن الله تعالى سوء عاقبة البطر بالنعمة، والبخل بالخير، والاحتيال على إسقاط حقٍّ من حقوق الله تعالى، أو حقوق عباده، فقد كان هؤلاء في غفلة عن ذكر الله تعالى حين حاولوا أن يستأثروا بثمارها دون المساكين، ولعلّهم حسبوا أن لا تكون فتنة، فعموا وصمّوا، وبيّتوا نيّتهم السيّئة، وقد نسوا الله، ونسوا أن يحمدوه، ويذكروه ويشكروه على ما أعطاهم، فلمّا بطروا وظلموا أنفسهم، ابتلاهم الله تعالى بأن أحرق جميع الثمار التي اشتمل عليها بستانهم[2].

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ (17) وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ (18) فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ (19) فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ (20) فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ (21) أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ (22) فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ (23) أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ (24) وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ (26) بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ (27) قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ

---

[1] - محمد عبد العزيز الحمادي الرحالي، **الابتلاء في القرآن الكريم**، مذكّرة دكتوراه في الكتاب والسنّة، غير منشورة، جامعة أمّ القرى، 1408هـ، 1988م، ص: 196

[2] - رجب نصر موسى الأنس، **سنّة الابتلاء في القرآن الكريم**، م.س، ص: 113

لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿28﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿29﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿30﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿31﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿32﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾[القلم: 17- 33] .

هل يُعدّ كلّ ابتلاءٍ بمصيبة جزاءً على تقصير؟ وبالتالي فهل كلّ بلاء مصيبة عقوبة؟

وهذه مسألة قد تُشكل على بعض الناس؛ ومنشأ الإشكال فيما أرى: هو الاختلاف في فهم النصوص المتعلّقة بهذه المسألة، وكيف يكون الجزاء على الأعمال.

ففي حين يرد التصريح في بعض النصوص بأنّ كلّ مصيبة تقع، فهي بسبب ما كسبه العبد، كقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾[الشورى: 30] ؛ نجد نصوصاً أخرى تصرّح بأنّ البلاء يقع –فيما يقع له- على المؤمنين ليكشف عن معدنهم ويختبر صدقهم، قال الله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿1﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿2﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[العنكبوت : 1-3].

فلو كان كلّ بلاء يقع يكون جزاء على تقصير؛ لكان القياس أن يكون أشدّ الناس بلاء الكفرة والمشركين والمنافقين، بدليل الآية الأولى، ولكن جاء في حديث سعد أنّه قال: "قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً قَالَ: الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ"[1].

والذي يزول به هذا الإشكال بإذن الله تعالى، هو أن ننظر إلى هذه المسألة من ثلاث جهات.

الأولى: أن نفرّق بين حال المؤمنين وحال الكفّار في هذه الدنيا:

فالمؤمنون لابدّ لهم من الابتلاء في هذه الدنيا، لأنّهم مؤمنون، قبل أن يكونوا شيئاً آخر، فهذا خاصّ بهم، وليس الكفّار كذلك. قال الله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: 2]

الثانية: أنّه لا انفصال بين الجزاء في الدنيا والجزاء في الآخرة:

فما يقع على المؤمنين من البلاء والمصائب في الدنيا، فهو بما كسبت أيديهم من جهة، وبحسب منازلهم عند الله في الدار الآخرة من جهة ثانية .

فمنهم من يجزى بكلّ ما اكتسب من الذنوب في هذه الدنيا، حتّى يلقى الله يوم القيامة وليس عليه خطيئة. وهذا أرفع منزلة ممّن يلقى الله بذنوبه وخطاياه؛ ولهذا اشتدّ البلاء على الأنبياء فالصالحين فالأمثل فالأمثل؛ لأنّهم أكرم على الله من غيرهم .

ومن كان دون ذلك فجزاؤه بما كسبت يداه في هذه الدنيا بحسب حاله .

[1] - رواه الترمذي في سننه برقم: 2322

وليس الكفّار كذلك؛ فإنّهم كما قال الله تعالى:﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: 15-16]؛ فليس هناك أجور تضاعف ولا درجات ترفع، ولا سيّئات تُكفّر.

ومقتضى الحكمة ألاّ يدّخر الله لهم في الآخرة عملاً صالحاً، بل ما كان لهم من عمل خير، وما قدّموا من نفع للخلق يجزون ويكافئون به في الدنيا، بأن يخفّف عنهم من لأوائها وأمراضها... وبالتالي لا يمنّ عليهم ولا يبتليهم بهذا النوع من المصائب والابتلاءات.

فما يصيب المؤمنين ليس قدراً زائداً على ما كسبته أيديهم، بل هو ما كسبوه أو بعضه، عُجّل لهم، لما لهم من القدر والمنزلة عند الله .

وهذه يوضّحها النظر في الجهة الثالثة وهي :

أن نعلم علم اليقين أن أيّ عمل نافع يقوم به المسلم، فإنّه لابدّ أن يلقى جزاءه في الدنيا، كما يلقى ذلك غيره، بل أفضل ممّا يلقاه غيره. وهذا شيء اقتضته حكمة الله، وجرت به سنّته. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا"[1].

- الابتلاء للمؤمن نعمة، وللكافر نقمة:

قال الله تعالى:﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[آل عمران : 141]، والتمحيص هو التنقية والتخليص، وهو بمعنى الابتلاء والاختبار، أمّا المحْقُ فهو محو الشيء والذهاب به.

قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم:"مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ"[2]، وقال أيضًا: "إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[3].

فالابتلاء للمؤمن نعمة من ربّه يلقيها عليه ليمحّصه وينقّيه، ويزيل عنه بصبره عليه ورضائه بقضائه، ما قد يكون في صحيفته من الذنوب والآثام، حتّى يأتي يوم القيامة بصحيفة بيضاء نقية لا يرى فيها إلاّ الخير ، فيكون من أهل اليمين، ولا يخلو إنسان من الذنوب الصغيرة، على الأقلّ، لذلك فهي رحمة من الله لأنّ المؤمن يستطيع الصبر، وتحمّل ابتلاء الدنيا، ولا يقدر عليه في الآخرة. قال الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ (155) ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ (156) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[البقرة : 155- 157] .

---

[1] - رواه الإمام مسلم في صحيحه برقم: 5022

[2] - رواه البخاري في صحيحه برقم: 5210

[3] - رواه الترمذي في سننه برقم: 2319

فقد بيّنت الآيات ما أعدّه الله للمبتلين الصابرين، فممّا أعده الله لهم، صلوات من ربّهم، وصلاة الله على العبد إقباله عليه بالعطف والمغفرة، فينال خيري الدنيا والآخرة، فضلاً عن تغمّد الله تعالى له بالرحمة والإحسان، وفي النهاية هم المهتدون المتّبعون صراط الله المستقيم.

وأقرب ما يكون العبد من الفرج مع كثرة البلاء، ومن الأمثال السائرة : اشتدّي أزمة تنفرجي، وإنّما يكون الفرج عند كثرة البلاء، لأنّه يكون مضطرًّا والبارئ سبحانه وتعالى وعد المضطرّين بالإجابة وكشف السوء، فضلاً عن أنّه وعد الداعي مطلقاً بالإجابة. قال الله تعالى :﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾[الأعراف : 94]، وقال تعالى :﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[النمل: 62] .

- آداب وأساليب مواجهة الابتلاء بالخير:

-الشكر:

إنّ حصول الشكر من العبد، هو الغاية من الابتلاء بالخير، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾[إبراهيم : 7]، فعلّق الزيادة على الشكر، وقال الله تعالى : ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴾[النساء : 147] .

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنْ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا"[1]. فالحمد يستجلب رضى الله عزّ وجلّ، ومن رضيَ الله عنه أصابه الخير من حيث لا يدري.

أمّا من ينكر فضل الله ونعمته عليه، فهو الجَحود، ومن جحد نعمة الله فمصيره مصير قارون، الذي قال الله تعالى فيه:﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿76﴾ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿77﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿78﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿79﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ

[1] - رواه الإمام مسلم في صحيحه برقم: 4915

صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝80 فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴾[القصص: 76-81]

فمن يرى الفضل لنفسه، وينكر نعمة الله الظاهرة والباطنة، فهذا الجُحود والنكران لا يكون إلاّ من الكافرين، قال الله تعالى :﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[النحل : 83]

إذن غاية الابتلاء بالنعم هو حصول الشكر، ومن شكر، زاده الله، ورضي عنه، ومن جحد وأنكر، غضب الله عليه، وأعدّ له عذاباً أليماً.

- محاسبة النفس:

حثّ الله سبحانه وتعالى الإنسانَ على محاسبة نفسه أوّلاً بأوّل، حتّى يكون دائماً متأهّبًا مستعدًّا للقاء الله، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحشر: 18]

ومحاسبة النفس سلوك يساعد على دعم الوازع الداخلي للفرد، وتقوية النفس اللوّامة التي تساعده على تقويم سلوكه، وتدفعه إلى اتّباع الحقّ والهدى بصورة متزايدة، ويتصرّف بعد معرفة سليمة صادقة، ويسعى إلى ما يُرضي الخالق سبحانه وتعالى.

- المجاهدة:

ينبغي للمسلم أن يجاهد نفسه على العبادات والطاعات، وأن يلومها على تقصيرها إذا قصّرت، أو فترت، أو توانت عن أداء الفضائل، أو كسلت عن شيء من الأذكار و الأوراد.

كما ينبغي أن يجاهد نفسه الأمّارة والشيطان، بالتحكّم في الشهوات والملذّات، وأن يجتهد في الابتعاد عن مصادر الفتن، ومواقع الشبهات، حتّى لا يقع في شراكها، فاتّباع الأوامر واجتناب النواهي، في ظلّ المغريات والفتن التي يلقيها الشيطان في طريق الإنسان، ليس بالأمر الهيّن اليسير، بل هو الأمر الذى يحتاج إلى شخصية لا تقف أمام الشهوات، ولا يستحوذ عليها الشيطان، شخصية تتّصف بالجلد والمثابرة، ولا تستكين للمغريات ولا تهوي في مواجهة الملذّات ولا تصرعها الفتن.

فمن جاهد وقاوم واستعان بالله، هداه الله ووفّقه، وجزاه الجزاء الأوفى، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[العنكبوت : 69] .

والمجاهدة هي مقصود الابتلاء والغاية منه، حتّى يتبيّن صحيح الإيمان من غيره، قال الله تعالى:﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴾[محمد : 31]

ومن جاهد في الله أعانه الله، ومن تقرّب من الله، تقرّب الله منه، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الحديث القدسي: "إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً"[1].

فالشهوات طريق النار، والمجاهدة هي طريق الجنّة، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "حفّت الجنّة بالمكاره، وحفّت النّار بالشهوات"[2].

وممّا يعين على المجاهدة، مصاحبة الأخيار، والسير على نهج الأبرار، وأوّلهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكثرة الاطّلاع على سير وقصص السلف الصالح، فهم قدوة المجاهدة، قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[الكهف : 28] .

- المراقبة:

يجب أن يعلم الإنسان أنّ الله مطّلع عليه، مراقب له أينما كان في برّ، أو بحر، أو جوّ، أو ظلمة أو ضياء، وأنّ هناك من يسجّل عليه كلّ قول أو فعل، قال الله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: 17-18]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾[آل عمران : 5]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد : 4] ، وقال: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[غافر: 19] .

- العلم بحقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة :

يبيّن الله تعالى في القرآن الكريم حقيقة الدنيا، فما هي إلاّ دار تعب وشقاء، فمتاعها قليل، وشقاؤها كثير، وما فيها من لذّة فهي مكدّرة، لا تستقيم لأحد، أمّا الآخرة فهي دار المستقرّ والقرار، قال الله تعالى : ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت : 64]

فالعاقل هو الذي يستجمع قواه للآخرة، لا الذي تلهيه تَوَافِه الدنيا الزائلة الفانية، فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ"[3].

- آداب وأساليب مواجهة الابتلاء بالشرّ والمصائب والهموم:

---

[1] - رواه البخاري في صحيحه برقم: 6982

[2] - رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده برقم: 3187

[3] - رواه الترمذي في سننه برقم: 2389

- التوبة والرجوع إلى الله:

إنّ نزول المصيبة هو فرصة الإنسان للتَّوبة قبل أن يحلَّ العذاب الأكبر يوم القيامة قال الله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[السَّجدة:21]

وقال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم : 41]، فعلى العصاة أن يبادروا بالتوبة ممّا حرّم الله عليهم، ويسارعوا إلى طاعة الله ورسوله، لأنّ المعاصي سبب كلّ بلاء وشرّ في الدنيا والآخرة. وأمّا توحيد الله والإيمان به وبرسله، وطاعته وطاعة رسله، والتمسّك بشريعته، والدعوة إليها، والإنكار على من خالفها فذلك هو سبب كلّ خير في الدنيا والآخرة.

وقد بيّن الله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة أنّ الذي أصاب الأمم السابقة من العذاب والنكال، بالطوفان والريح العقيم، والصيحة والخسف، وغير ذلك كلّه، بأسباب عصيانهم وذنوبهم، كما قال عزّ وجلّ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[العنكبوت : 40]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾[الشورى: 30] ، وأمر الله تعالى عباده بالتوبة إليه، والضراعة إليه عند وقوع المصائب، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[التحريم: 8]، وقال سبحانه: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور: 31]

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام: 42-43]، وفي هذه الآية الكريمة حثٌّ من الله سبحانه لعباده، وترغيبٌ لهم إذا حلّت بهم المصائب من الأمراض والجراح والقتال والزلازل والرياح والعواصف وغير ذلك من المصائب، أن يتضرّعوا إليه، ويفتقروا إليه فيسألوه العون، وهذا هو معنى قوله سبحانه: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾، والمعنى هلاَّ إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ قسوة قلوبهم، وتزيين الشيطان لهم أعمالهم السيّئة، كلّ ذلك بسبب صدّهم عن التوبة والضراعة والاستغفار، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

- الصبر :

أصل كلمة: صبر، هو المنع والحبس، فالصبر حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكّي، والجوارح عن لطم الخدود وشقّ الثياب ونحوهما، ويقال: صبر يصبر صبراً، وصبر نفسه، قال الله تعالى :﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[الكهف : 28]

وقد حثّ الله تعالى على الصبر، وذكره في القرآن الكريم في نحو تسعين موضوعاً، كما أمر بالاستعانة به، قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[البقرة : 45] وجعل الله تعالى جزاء الجنّة، والنجاة من النار من حظّ الصابرين، قال تعالى:﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون : 111]

وأقسم سبحانه وتعالى بأنّ الإنسان في خسران، واستثنى من ذلك أولئك المؤمنين الذين يتواصون بالحقّ والصبر، قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[العصر: 1-3]

وقد أمر الله نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بالصبر، وأن يجعل صبره لله، حتّى تهون عليه جميع المصائب والأحزان، قال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل : 127-128].

وأخبر الحقّ جلّ وعلا، أنّه في حال اجتماع الصبر مع التقوى، فإنّه لا ينفع كيد العدوّ مهما كان، قال الله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[آل عمران : 120].

وبيّن سبحانه أنّ معيّته إنّما تكون مع من يتّصفون بالصبر، قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[الأنفال : 46].

وإذا تأمّلنا الآيات القرآنية التي تخبر عن جزاء الصابرين، فسوف نجد أنّ الله تعالى أعطى على الصبر ما لم يعطه على غيره، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر : 10].

وقال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النحل : 96].

وقد جمع الله للصابرين أمورًا لم يجمعها لغيرهم، فقال تعالى:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾[البقرة : 157].

فالصبر هو السلاح الفعّال الذي أعطاه الله لعباده المؤمنين، ليستعينوا به ضدّ المصائب والمكايد والهموم، وما يعصف بهم من رياح الدنيا، وقد جرّبه من كان قبلنا، فهذا "نوح" عليه السلام ظلّ يدعو قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، ومع ذلك لم يؤمن له إلاّ القليل، فصبر واستمرّ في دعوته حتّى أهلكهم الله، وهذا "يعقوب" عليه السلام يعلم أنّ أبناءه كادوا لأخيهم ومكروا به، ومع ذلك يقول "فصبر جميل"، و"أيّوب" عليه السلام الذي ابتلاه الله بأشدّ أنواع البلاء، فصبر حتّى عوّضه الله خيراً، وهذا نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم يتحمّل الجوع والإيذاء وموت الأهل والأحباب، والتغريب عن الوطن، والطعن في العرض، وهو مع ذلك ظلّ صابراً محتسباً، حتّى أعزّه الله ونصره، وجعل كلمته هي العليا.

- الإيمان بالقضاء والقدر :

إنّ الإيمان والإذعان والانقياد والتسليم التامّ بأنّه لا يحدث أيّ شيء في هذا الكون، كبر أو صغر، إلاّ وهو مطابق لقضاء الله تعالى وقدره، يعتبر ذلك جزء لا يتجزّأ من عقيدة المسلم، ولا يكتمل إيمانه إلاّ بها، قال الله تعالى:﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ (22) لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴾[الحديد : 22-23] . فهاتين الآيتين قد ألقيتا الثقة والرضا والاطمئنان بقضاء الله وقدره في قلوب المؤمنين.

والقرآن الكريم يعلّمنا التعامل مع المصائب، قال الله تعالى :﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[التوبة : 51] .

والإنسان إذا علم أنّ المصيبة من عند الله، هانت عليه، كما قال الله تعالى:﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾[التغابن : 11] .

والإنسان متى اعتقد اعتقادًا جازمًا أنّ ما قضاه الله تعالى في علمه لابدّ أن يتمّ، وأنّ ما قدّره لابدّ أن يكون؛ متى اعتقد ذلك، انطلق في هذه الحياة ليؤدّي ما يجب عليه نحو خالقه عزّوجلّ ونحو عقيدته، ونحو ذاته، ونحو غيره، يؤدّي التكاليف التي كلّف بها بكلّ نشاط وإقدام وإخلاص وإتقان، ثمّ بعد ذلك يترك النتائج لله عزّوجلّ يصرّفها كيف يشاء.

والإيمان بالقضاء والقدر، يجعل الإنسان في حالة انقياد واستسلام لأمر الله، لا يفاجأ بما يحلّ به، لأنّه اختيار الله، ومن ثمّ إن كان خيرًا شكر، وإن كان غير ذلك صبر، وفي كلٍّ خير كما قال رسول الله صلّى الله

عليه وسلّم: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"[1].

- الدعاء :

أمر الله تبارك وتعالى بالدعاء، وحثّ عليه، قال الله تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر: 60]،فجعل الدعاء عبادة، وتوعّد الذين يستكبرون عن دعائه، كما بيّن أن لا وساطة في الدعاء فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة: 186] .

- الإكثار من نوافل الصلاة:

تعدّ الصلاة من أهمّ أساليب مقاومة الهموم والغموم، قال الله تعالى:﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[البقرة: 45]، والاستعانة هي طلب العون والمدد، فهذا أمر من الله تعالى للمؤمنين، والنداء لجذب انتباههم لما سيلقى عليهم، فيأمرهم سبحانه بالاستعانة بالصبر مع الصلاة، على مايواجهونه من مهمّات وملمّات، وممّا تعصف به الحياة من كدر، وهمّ وغمّ، وأحزان، وما يلاقونه من شدائد، فقد أذاقتهم قريش ألوان وصنوف العذاب، وحدث لهم في صدر الدعوة ما لا يطيقه غيرهم، كما نبّههم الله إلى أنّ الصلاة كبيرة ثقيلة إلاّ على الخاشعين، لذلك فلابدّ من الخشوع في الصلاة حتّى تأتيَ الطمأنينة من خلالها .

ومن أعظم النعم هذه الصلوات الخمس كلّ يوم وليلة، فهيَ كفّارة لذنوبنا، رفعة لدرجاتنا عند ربّنا، ثمّ هي علاج عظيم لمآسينا، ودواء ناجح لأمراضنا، تسكب في ضمائرنا مقادير زاكية من اليقين، وتملأ جوانحنا بالرضا.

وتعتبر الصلاة بالنسبة لكثير من الناس، طريقة فعّالة للتغلّب على التوتّر والمعاناة، إذ يساعدهم إيمانهم بحبّ الله وبعدالته على الصبر، وتساعدهم الصلاة على الثبات عند المحن والصعاب، فهم عندما يصلّون يعترفون بقلّة حيلتهم وبعظمة الله، وهذا الخضوع لله يمنحهم القوّة والشجاعة، وقد أشارت العديد من الدراسات إلى القوّة المؤثّرة على الجسد، فالأشخاص الذين يصلّون يكونون أقلّ عرضة لارتفاع ضغط الدم، والسكتة الدماغية، كما تساعدهم الصلاة – نفسياً – على تحويل القلق إلى هدوء وسكينة، كما تعمل الصلاة على التغلّب على الانفعالات والشعور بالأمن ومواجهة مصاعب الحياة[2].

- البذل والعطاء :

---

[1] - رواه الإمام مسلم في صحيحه برقم:5318

[2] - قطاع الشؤون الثقافية، **الصلاة وأسرارها النفسية بالمفاهيم السلوكية المعاصرة**، إدارة الثقافة الإسلامية، الكويت، 2005

بيّن الله سبحانه وتعالى فضل الصدقة في دفع البلاء، فقال:﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (7) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (10) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾[الليل: 5-11].

وقد أمر الله تبارك وتعالى بالإحسان والتسابق إلى فعل الخيرات، قال الله تعالى:﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[المائدة : 48] . وقال الله تعالى أيضًا:﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : 77].

كما نفى الله سبحانه وتعالى الحزن والخوف عن عباده المتّقين، قال الله تعالى:﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : 262] .

وأيضاً أقرّ سبحانه بأنّ الصدقة تثبت النفس إذا كانت ابتغاء مرضاة الله، لأنّ النفس إذا رضيت بالتحامل على الإنفاق قلّ طمعها واتباعها لشهواتها، وتخطّت درجة النفس الأمّارة بالسوء، لأنّ المال شقيق الروح، قال الله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[البقرة : 265] .

وهذه الحقيقة القرآنية هي من أهمّ مكتشفات علم النفس الحديث، فهو يسعى إلى إثبات أنّ سعادة الإنسان وقدرته على إدراك كنه نفسه، لن يتأتّيا بغير تضحية النفس في سبيل الغير، وتعويد المرء نفسه الخضوع لنظم خاصّة، فالإنسان بطبعه أنانيّ ينقاد وراء دوافعه المباشرة، وقد أثبتت اختبارات الصفات الشخصية والتجارب الطبيّة لعلماء النفس أنّ الاتجاه في هذا الطريق يؤدّى إلى انكماش الشخصية، واضطراب العواطف، والأعصاب، والتخبّط الفكري والشقاء وسوء النظام، أمّا الاتّجاه إلى فعل الخيرات، والتضحية لإسعاد الآخرين، والتعاون معهم واللجوء إليهم، فدليل سعادة الفرد وتوفير حياة هادئة.

- اليقين بفرج الله تعالى وعدم اليأس :

ينبغي على المسلم أن يوقن بأنّ الله سبحانه وتعالى جعل مع العسر اليسر، قال الله تعالى:﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾، فأكّد سبحانه وتعالى على أنّ اليسر لا يفصله عن العسر شيء، فهما متلازمان لا يفترقان، وإعادة الآية حتّى يوقن أولئك الذين غلبت عليهم الهموم والأحزان من فرج الله تعالى.

وجعل الله مع الحزن الفرح، ومع الهمّ والكدر الفرج، وبيّن أنّه كلّما اشتدّ الهمّ والضيق قرب الفرج، قال الله تعالى :﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾[يوسف : 110] .

فمن أيقن من ابتلاء الله وأتبعه بإيقانه بالفرج هانت عليه بلواه، فماذا بعد العسر إلاّ اليسر.

يقول الشاعر:

كم فرج بعد إيّاس قد أتى وكم سرور قد أتى بعد الأسى[1]

- النظر إلى المبتلين :

من أساليب مواجهة الابتلاءات، النظر في أهل البلاء والتعزّي بهم، فمن نظر في بلوى من هو أشدّ منه، تصبّر وعلم أنّ بلاءه أهون من بلاء غيره، فهان عليه بلاؤه، وسكنت نفسه.

وهذا الأسلوب شائع وكثير في القرآن الكريم، خاصّة فيما نزل قبل الهجرة، فكان جلّ قصصه من قصص الأوّلين التي نزلت تسلية للرسول صلّى الله عليه وسلّم، وإعانة له على الصبر والمجاهدة، قال الله تعالى: ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [هود: 120] .

ومن أمثلة ذلك، عندما حزن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهَمَّهُ ما قاله أهل الكتاب، وما طلبوه من أن ينزّل عليهم كتاباً من السماء، بيّن الله تعالى له ما حدث مع "موسى" عليه السلام وهو أكبر ممّا حدث معه، ليسكن قلبه وتهدأ روحه، فقال الله تعالى:﴿ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴾ [النساء : 153] .

والأمثلة كثيرة في القرآن الكريم.

- الخوف من الله :

الخوفُ لغةً: يدلُ على الذُّعْرِ والفزَع، يُقالُ: خِفْتُ الشّيءَ خوفًا وخِيفةً.

وهو اصطلاحًا، كما عرَّفه العلماءُ، هو: توقُّع مكروه عن أَمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ.

والخوف المحمود: ما حجزكَ عنْ محارمِ اللهِ

والخوف من الله إمّا أن يكون لمعرفة الإنسان بالله تعالى ومعرفة صفاته، والخوف من عقابه، فإنّه سبحانه وتعالى قادر على إهلاك الخلق جميعاً، وإمّا أن يكون الخوف من الله بسبب كثرة الذنوب والخطايا.

---

[1] - البيت لأحمد بن حمزة البوني، في : **المستطرف من كلّ فنّ مستظرف**، لشهاب الدين الابشيهي: عالم الكتب ، بيروت ، ط:1، 1419هـ، ص: 486

وأخوف الخلق من الله تعالى أعلمهم به، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر: 28].

وبيّن تعالى أنّ الخوف من الله، هو من صفات المؤمنين، فقال:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝2 ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝3 أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال : 2-4] .

وتبدو ثمرة الخوف من الله تبارك وتعالى في هذا المجال، فإنّ من خاف أحدًا جمع كلّ همّه وخاطره في العمل لإرضائه وتجنّب سخطه، ولم يشغله غيره، ومن كان خوفه من الله، شغله خوفه عن التفكّر في ملذّات الدنيا وفوات حظوظها، وعمل للآخرة، فلا تشغله التوافه، ولا تضرّه الهموم والأحزان، كما أنّه يسعد بالابتلاء، ويتّخذه وسيلة لإرضاء مولاه جلّ وعلا، فلا توقفه المصائب، ولا تزعجه الملمّات، ولا يؤثّر فيه ضيق العيش وأذى الخلق، لأنّه مشغول عن كلّ ذلك بما هو أهمّ؛ فتكتسب نفسه قوّة وعزيمة، فلا يقف أمامها شيء من ابتلاءات الدنيا.

ولذلك حثّ الله تبارك وتعالى على خشيته، والخوف منه، ورغّب فيه في مواطن كثيرة تخرج عن الحصر، فقد جمع الله تعالى للخائفين الوجلين صفات وفضائل، مثل الهدى والرحمة، قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾[الأعراف : 154] ، وجمع لهم الرضا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾[البينة : 8] ، وبشّرهم بالجنّة، فقال:﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[الرحمن: 46] .

وما حمل الأنبياء والرسل والصالحين على تحمّل ما لقوه في سبيل دعوتهم إلاّ خوفهم من ربّهم جلّ وعلا.

- الرجاء :

الرَّجاءُ كما عَرَّفهُ بعض أهل العلمِ: حادٍ يحدو القلوبَ إلى بلاد المحبوبِ، وهو اللهُ والدَّارُ الآخرةِ، ويطيب لها السير، وقيل: هو الاستبشارُ بجودِ وفضلِ الرَّبِّ تباركَ وتعالى، والارتياحِ لمطالعةِ كرمهِ سبحانهُ.

الرجاء إذن هو حالة من الارتياح تحدث للفرد من جرّاء أخذه بأسباب الحصول شيء وعدم التقصير في سبل الحصول عليه ، لذلك فهو يأمل فيه وينتظر وقوعه .

وقد حثّ الله تعالى على الرجاء، ونبذ اليأس في آيات متعدّدة منها قوله تعالى:﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[الزمر: 53] .

وقال الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[الزمر: 9] . وقال تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[الممتحنة: 6].

فالرجاء يبعث في النفس الطمأنينة والراحة، فالنفس المؤمنة تأمل مغفرة الله ورضوانه، لذلك فهي تعمل لما ترجوه، حتّى تحدث لها الراحة التي تبغيها، ومن ثمّ فالنفس التي يشغلها السعي لرضى ربّها، لا تقف عند غيره، ولا يضرّها ما تلقيه الدنيا عليها من مصائب وابتلاءات.

لذلك فالخوف والرجاء يكمّلان بعضهما، فالخوف بدون الرجاء ربّما يفضى إلى اليأس والقنوط، وكذلك فالرجاء بدون الخوف، ربّما يفضى إلى الأمن من مكر الله، وعدم الأخذ بالأسباب.

- التوكّل على الله وتفويض الأمر إليه والاحتساب:

التوكّل: في اللغة الاعتماد على الغير في أمر ما، وتفويضه.

واصطلاحا: التوكّل على الله سبحانه هو الاعتماد عليه وتفويض الأمور إليه.

وقيل أيضًا: صدق اعتماد القلب على اللّه تعالى في استجلاب المصالح ودفع المضارّ من أمور الدنيا والآخرة.

وقال الجرجاني في التعريفات: التوكّل هو الثقة بما عند اللّه، واليأس عمّا في أيدي الناس[1].

فقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالتوكّل عليه وقال:﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾[الفرقان : 58]، وبيّن أنّ المؤمنين هم الذين يتوكّلون على الله، قال الله تعالى:﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[آل عمران :122]، وقال أيضًا:﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[المائدة: 23] . وينبّهنا الله تعالى إلى الطريق الصحيح في مواجهة أمور الحياة، يقول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران :159] ،ويبيّن الله تعالى أنّ من توكّل عليه كفاه، قال الله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾[الأحزاب: 3]، وقال تعالى:﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[الطلاق: 3] .

ويقصّ الله تعالى علينا أحوال بعض من سبق للاعتبار، قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾[آل عمران : 173-174] ؛ وقال تعالى: ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[إبراهيم : 12] .

[1] - الجرجاني، علي بن محمد، **كتاب التعريفات**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، ص:70

وجاء أيضًا من أنباء من سبق: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[إبراهيم: 10-11] .

قال الغزالي: "ولهذا تراه يكثر ابتلاء أوليائه وأصفيائه الذين هم أعز عباده وإذا رأيت الله عز وجل يحبس عنك الدنيا ويكثر عليك الشدائد والبلوى فاعلم أنك عزيز عنده وأنك عنده بمكان يسلك بك طريق أوليائه وأصفيائه فإنه يراك ولا يحتاج إلى ذلك أما تسمع إلى قوله تعالى {واصبر لحكم ربك فإن بأعيينا} بل اعرف منته عليك فيما يحفظ عليك من صلاتك وصلاحك ويكثر من أجورك وثوابك وينزلك منازل الأبرار والأخيار والأعزة عنده. قال العارف الجيلاني: التلذذ بالبلاء من مقامات العارفين لكن لا يعطيه الله لعبد إلا بعد بذل الجهد في مرضاته فإن البلاء يكون تارة في مقابلة جريمة وتارة تكفيرا وتارة رفع درجات وتبليغا للمنازل العلية ولكل منها علامة فعلامة الأول عدم الصبر عند البلاء وكثرة الجزع والشكوى للخلق وعلامة الثاني الصبر وعدم الشكوى والجزع وخفة الطاعة على بدنه وعلامة الثالث الرضا والطمأنينة وخفة العمل على البدن والقلب".[1].

- النظر إلى الجوانب الإيجابية من الابتلاء:

يبيّن لنا القرآن الكريم أنّ المصيبة قد تحتوي على جانب إيجابي، فيجب النظر إليه، قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة: 216] .

وعندما ظنّ المسلمون في صلح الحديبية، من خلال بنود الصلح، والتي وافق عليها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّ هذه البنود استسلام، فأظهر المسلمون حزنهم وغضبهم، نزل القرآن الكريم بتوجيههم إلى النظر في الجوانب الإيجابية في الصلح، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾[الفتح : 20] .

فكم من العظماء حوّلوا المصائب إلى فرص استفادوا منها أيّما استفادة. فللمصائب والابتلاءات فوائد ظاهرة، منها: أنّها تعوّد الصبر، وتذكّر العبد بربّه، وضعفه وقرب نهايته.

- أثر الابتلاء في تكوين الشخصية:

يعدّ الابتلاء من أهمّ الأسس التربوية المفيدة في بناء الشخصية، وذلك لما فيه من إعداد لتحمّل الأعباء وتهيئة للقيام بالواجبات[2]، فهو بمنزلة التدريب الذي يخضع له الجنود، ليعدّوا للقيام بالمهامّ الجليلة التي

[1] - زين الدين المناوي، **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، مصر، الكتبة التجارية الكبرى، ط. 1، 1356. ج 1، ص 245- 246.

[2] - نصار أسعد نصار، م.س، ص: 39

تطلب منهم. وما التكاليف التي فرضها الله على عباده، وما تنطوي عليه من مشقّة إلاّ من أجل هذا. يدلّ على ذلك ما جاء في حكمة فرض الصيام، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: 183].

فالدنيا دار ابتلاء، ومقام تكليف، يتقلّب فيها العبد بين نِعَمٍ ونِقَمٍ، ويتعرّض لشدائدَ، وتصيبه مِحَنٌ، وهذا يتطلّبُ صبرًا، ويحتاجُ عزيمةً وثباتًا، فيأتي الابتلاء كالدواء المرّ الذي يؤلِمُ في الحالِ، وينفعُ في المآلِ، فيتأهّل الشخصُ ليكونَ أقوى عزيمة على القيامِ بالتكاليف، وأشدّ تحمّلاً لشدائد الحياة.

والابتلاء بالمال والنفس، والتعرّض لأذى الأعداء، إنّما هو ضريبة اتّباع الحقّ، ولا نجاة للإنسان إلاّ أن يأتيَ بما عزمه الله تعالى عليه، وهو الصبر والتقوى، قال الله تعالى: ﴿ لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾[آل عمران:186]

والله تعالى بعد أن أمر عباده بالشكر على تمام النعمة، وهي شريعته التي أنزلها على رسوله، إذ قال: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾[البقرة:152]، أخبرهم بأنّه سيبتليهم، ثمّ بشّر الصابرين، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[البقرة: 155]، وهذا دليل على أنّ الصبر على البلاء يعينُ على القيام بالتكاليف لأنّ لها أعباء، وفيها مشقّاتٍ، فالبلاء يعوِّد على الصبر، ويعين على التحمّل، وهو بمنزلة اللقاح الذي يُعطى للصحيح، فيُدرِّب الجهاز المناعي لديه على مقاومة الأمراض.

والمصائب تحمل على الإخلاص لله تعالى، والإنابة إليه، والإقبال عليه، إذ لا مرجع في دفع الشدائد إلاّ إليه، فتزول الحُجُبُ التي غطّت الفطرة، لتبرز الحقيقة أن لا ملجأ إلاّ إلى الله، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ﴾[الزمر: 8]، وقال: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴾[النحل:53]، وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ ﴾[الإسراء: 67].

والإمامة في الدين، والرياسة في الدنيا لا ينالها إلاّ من أصابته المحن، وصمد لها، وذلك ليتأهّل للقيام بالمسؤولية المنوطة به، لهذا كان الأنبياء والأولياء أكثر من أصابتهم المحنُ والبلايا، ليُعَدّوا للمهامّ التي سيكلّفون بها، فهذا إبراهيم عليه السلام ابتلاه الله: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ ﴾[البقرة: 124]، فنجح في الابتلاء: ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴾[النجم: 37]، وبذلك استحقّ تلك الدرجة العالية التي بوّأه الله إيّاها، قال له الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗا ﴾[البقرة: 124]

ورويَ عن سعد أنّه قال: "قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً قَالَ: الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ"[1].

- الخاتمة:

- إنّ الابتلاء في هذه الحياة سنّة من سنن الله تعالى في هذا الكون، قال الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾[الملك: 1-2].

-. سنّة الابتلاء سنّة شاملة تشمل جميع أفراد الأمّة دون استثناء أو محاباة لأحد حتّى الأنبياء، فهي لا تتوقّف في زمن دون زمن، أو مكان دون مكان، فحياة الإنسان كلّها ابتلاء.

- لمواجهة ابتلاءات الحياة ومصائبها، وتحمل أعبائها وتبعاتها، ومواجهة الفتن ومضلاتها، والحذر من مزالقها ومخاطرها، فلا بدّ من الإيمان.

- الصبر والشكر من أهمّ متطلّبات الإيمان، بل إنّ الإيمان يُبنى عليهما، فالإيمان نصفه صبر ونصفه شكر، والمؤمن هو الوحيد الذي يجمع بين الأمرين كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم.

- المصائب والشدائد التي تحلّ بالعباد إمّا أن تكون جزاء وعقوبة، وإمّا أن تكون ابتلاء وتربية، والناس كثيرًا ما يخلطون في ذلك، لجهلهم بهذه الحقيقة من جهة، وجهلهم بما هو عليه واقع العباد من جهة أخرى.

- المحن والشدائد من شأنهما أن يكشفا عن الفطرة ويزيلا عنها الحجب فتلجأ إلى خالقها مُتضرّعة إليه لائذةٍ بجنابه، داعية إيّاه أن يكشف عنها ما حلّ بها من ابتلاء.

- عقيدة الإسلام التي تتركّز في الإيمان بالله عزّ وجلّ، والرضا بما قدّره سبحانه، تسكب في قلب المؤمن الطمأنينة والسكينة وهو يواجه الصّعاب والآلام، و هذه العقيدة إذا رسخت في النفس ووقرت في الضمير حوّلت البلية عطيّة، والمحنة منحة، وكلّ المصائب جوائز وأوسمة، ومن يرد الله به خيرًا يصب منه، فلا يُصيبه قلق من مرض أو موت أو مصيبة أو ابتلاء، فإنّ الباري قدَّر وقضى، والاختيار هكذا، والخيرة لله وحده.

وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

- المصادر والمراجع:

- ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، تح: عبدالرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1416هـ

- ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط:3، 1414هـ.

[1] - رواه الترمذي في سننه برقم: 2322

- الجرجاني، علي بن محمد، **كتاب التعريفات**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983
- رجب نصر موسى الأنس، **سنّة الابتلاء في القرآن الكريم**، مذكّرة ماجستير في أصول الدين، غير منشورة، قدّمت بكلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2007م
- زين الدين المناوي، **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، مصر، الكتبة التجارية الكبرى، ط. 1، 1356
- شهاب الدين الابشيهي: **المستطرف من كلّ فنّ مستظرف**، عالم الكتب ، بيروت ، ط:1، 1419هـ
- العسقلاني، ابن حجر، **فتح الباري**، دار المعرفة، بيروت، 1379
- قطاع الشؤون الثقافية، **الصلاة وأسرارها النفسية بالمفاهيم السلوكية المعاصرة**، إدارة الثقافة الإسلامية، الكويت، 2005
- محمد عبد العزيز الحمادي الرحالي، **الابتلاء في القرآن الكريم**، مذكّرة دكتوراه في الكتاب والسنّة، غير منشورة، جامعة أمّ القرى، 1408هـ، 1988م
- نصار أسعد نصار، **مفهوم الابتلاء في القرآن الكريم**، مجلة جامعة دمشق، المجلد:20، العدد الأوّل 2004